خصائص المدرسة النحوية المغاربية عصر الموحدين أنموذجا

The characteristics of the Maghreb Grammar school The era of Mowahidine as sample study

أ.أحمد فجر

جامعة يحيى فارس المدية– الجزائر

الملخص:

عرف النحو العربي انتشارا واسعا في بلاد الأندلس والمغرب العربي، وقد اشتهر بين العلماء أن النحو عند المغاربة امتداد لما جاء به البصريون والكوفيون، وسنسعى في هذه الورقة البحثية لبيان الأسباب الداعية لاهتمام المغاربة بالنحو، وإبراز سمات وخصائص المدرسة النحوية المغاربية.

الكلمات المفتاحية: المدرسة، النحو، المغاربة، المشارقة، عصر الموحدين.

Abstract:

The Arab Grammar has widely spread in Andalusia and the Maghreb. It has been known among scientists that the Grammar in the Maghreb is the extension of that developed in Basra and Koufa. In this research paper we try to tackle the major reasons which made the moors interested in Grammar and to highlight the features and characteristics of grammar school in the Maghreb.

Keywords: school, grammar, Moors, oriental people, era of the Mowahidine.

مقدمة:

إنَّ الحديث عن علوم العربية شيء جميل وأمر جليل ذو قيمة، وأجمل ما فيه هو البحث في أجلِّ هذه العلوم وأقصد به النحو، والموضوع الشيق الذي وددت معرفة مكنوناته هو الدرس النحويّ في بلاد المغرب العربي على عهد الدولة الموحدية وأهم خصائصه؛ إذ تعد المدرسة النحوية المغاربية لؤلؤة مضيئة في عقد فريد تزينت به بلاد المغرب وتميزت عن أختها المشرقية.

أما سبب اختياري لعصر الموحدين فهو ذلك الزخم الواسع من الثقافة والتحررّ فيه، حتى صارت هذه الفترة الذهبية عنوانا للمدرسة التجديدية في الفكر العقدي والمذهب الفقهي والدرس اللغوي والنحوي.

ولذلك وردت هذه الأسئلة تباعا:

ما هي دوافع المغاربة للتأليف في النحو؟ ولماذا نظموا علم النحو شعرا ؟

وكيف نشأت المدرسة المغاربية في النحو؟ ومتى اكتملت شخصيتها وظهرت سماتها وخصائصها؟ ولماذا ألّف أهل المغرب والأندلس في علم النحو ؟

1- أسباب التأليف في النحو عند المغاربة:

لمَّا انتشر الإسلام في ربوع المغرب، وصار الناس يعتنقونه ويلتفون حول حامليه بدأ إقبالهم منصبا على تعلم لغة هذا الدين، فصارت لغة الضاد تنتشر في الآكام والوديان والصحاري والخلجان فحقّق هؤلاء منافع دينية ودنيوية.

وما هي إلا عقود معدودة حتى انتقل اهتمام المغاربة وأهل الأندلس إلى مقوِّم ألسنتهم ومصلحها، فأرادوا التأليف في علم النحو وتعليمه انطلاقا من بعض الدوافع التي نذكر منها[1]

1-1- تطوير اللغة وصيانتها من الأخطاء:

ظلّت اللغة العربية في بيئتها الجديدة بالمغرب الإسلامي تعاني من اللحن الناتج عن مزاحمة العامية للفصحى، وحفاظا عليها وحماية لكلام الله من التحريف والتصحيف شرع أعلام هذه الضفة من بلاد الإسلام في التأليف اللغوي والنحوي خاصة.

1-2- الرد على المشارقة:

مكث أهل المشرق ردحا من الزمن يقودون قافلة العلوم العربية؛ لأنهم ترعرعوا في أحضانها، فملكوا ناصيتها ووضعوا لها القواعد صونا لها، لكن

[1] يحياوي حفيظة، إسهامات نحاة المغرب والأندلس في تأصيل الدرس النحوي العربي خلال القرنين 06-07 هـ، مخبر الممارسات اللغوية جامعة تيزي وزو، 2011، ص76.

المغاربة والأندلسيين أرادوا الإدلاء بدلائهم رافعين راية التحدي، فشرعوا في التأليف في هذا الفن قصد الرد على إخوانهم المشارقة.

1-3- تراجع الدراسات النحوية في المشرق:

لقد أصاب العالم الإسلامي الوهن في أواخر حكم الدولة العباسية، فانعكس ذلك سلبيا على النّتاج اللغوي، وانصب اهتمام العلماء هناك على تأليف الموسوعات ونقل أخبار الأمم الهالكة فحاول علماء المغرب والأندلس ملء الفراغ وردَّ الاعتبار للنحو بعد الهجمة المغولية المتوحشة التي دمرت حضارة بغداد "وفي هذه الأثناء تدفق العلماء المغاربة إلى مصر والشام فنفحوهما نفحة لا ينساها لهم التاريخ"[1]

1-4- شرح الكتب وتسهيل فهمها للدارسين:

نظراً لإعجاب أهل الأندلس والمغرب بشيخ النحو "سيبويه" عمدوا إلى شرح "الكتاب " وتبسيطه لطلبة العلم والناشئة ،وشرح كتب نحوية أخرى. "[2]

ويبدو لي أن الدافع الثاني كان عاملا مهما في ظهور المدرسة النحوية في المغرب والأندلس؛ كونهم صاروا مستقلّين بمذهب يتميزون به عن باقي المذاهب

---

[1] محمد الطنطاوي، نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة، دار المعارف مصر. ط1995/02، ص222.

[2] يحياوبي، إسهامات نحاة المغرب والأندلس في تأصيل الدرس النحوي العربي خلال القرنين 06-07 هـ، ص77و78.

النحوية الأخرى "حيث ظهرت مبادئ مذهبهم بداية القرن الخامس الهجري الذي يعد بحق فجر النهضة النحوية في هذه البلاد "[1].

ومما نبغ فيه المغاربة أيضا التصنيف في المتون والمنظومات، التي تتميز بالاختصار والإيجاز والرموز والتلميحات، مقتفين في ذلك أثر إخوانهم المشارقة السبّاقين في هذا الميدان أوائل القرن الثاني الهجري، غير أنَّ المغاربة قد كانت لهم بعض اللمسات التجديدية التي تميزوا بها ستذكر في بابها.

ومن دوافع التأليف في هذا الفن من الشعر ما يلي :

01- نظرا لأهمية الشعر عند العرب وتفوقهم فيه، أرادوا أن يجعلوه آلة ووسيلة لنشر العلوم وتعليمها وحفظ قواعدها.

02- الرغبة في تيسير القواعد للمتعلمين وتسهيل حفظها.

03- ضبط أصول العلم في ألفاظ موجزة لتسريع الاستيعاب وهروبا من الملل والمشقة .

04- محاولة استدراك المفقود من التراث العربي والإسلامي الذي ضاع وأحرق من طرف المغول في بغداد شرقا والصليبيين في الأندلس غربا[2].

[1] الطنطاوي، نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة، ص 220.

[2] صليحة مخلوفي، ابن معطي ومنهجه التعليمي من خلال الألفية، مجلة المجمع الجزائري للغة العربية، ع 13 جوان 2011، ص190.

ومما سبق ذكره يتضح أن تطوير اللغة العربية والغيرة على كلام الله عزَّ وجل والعلوم التي تخدمه من نحو وصرف وتفسير وتجويد ... كانت من أبرز الدوافع لخوض غمار هذا الضرب من الشعر في المغرب الموحدي المشجع للعلوم والآداب، والذي أراد أن ينفرد بمذهب عقدي وفقهي ،بل وحتى نحوي يردّ به على المدرسة المشرقية قصد إبراز شخصيته في هذه الضفة من العالم وكذا ترسيخ كل ما يدل على هويته وكيانه المستقل.

كما لا أنسى وجود جملة من العوامل التي وفرت لأهل المغرب المناخ الثقافي المشجع على النشاط في العلوم المذكورة مع تباين متفاوت في نتاجهم من حيث الضعف والقوة .

ومن هذه العوامل شيوع المراكز الثقافية وكثرة الرحلات العلمية، وتوافد الطلبة والعلماء على بلاد المغرب وتشجيع الأمراء المتعاقبين لأهل العلم، إضافة إلى تنوع وسائط الثقافة المختلفة من معاهد ومساجد وزوايا ورباطات ومكتبات...[1]

2- نشأة المدرسة المغربية في النحو:

لما كانت اللغة العربية تشغل اهتمام الأعاجم والعرب، تزايد نشاط أهل النحو وكثرت مصنفاتهم مبرزين فيها الآراء المتعددة والأفكار المتباينة، لتأسس كل

[1] جميلة راجاح، إسهامات علماء المغرب الوسيط في تنمية الدرس النحوي، أطروحة دكتوراه قسم اللغة العربية، جامعة تيزي وزو، 2015، ص 70و80.

جماعة مذهبا خاصا بها تمثله مدرسة، فأول ما ظهرت المدرسة البصرية فالكوفية ثم البغدادية، وكان لكل مذهب خصائص تميزه عن باقي المذاهب.

لتلتحق فيما بعد مصر وبلاد المغرب الإسلامي بالركب، من خلال إنشاء مدرستين تضاف إلى هذه الفسيفساء الفكرية والتنوع اللغوي؛ "حيث انتقل النّحو مع الطلبة والعلماء إلى مختلف الأنحاء بما فيها بلاد المغرب ومعها الأندلس التي اشتغل أبناؤها بهذا العلم كثيرا"[1]، إلا أن تاريخ بداية هذا المذهب النحوي مسألة خلافية بين العلماء، فقد ذهبوا في هذه القضية مذاهب، فأما المجموعة الأولى فترى أن ظهوره كان خلال القرن الخامس الهجري.

وأما المجموعة الأخرى فترى أن القرن السادس الهجري يمثل البدايات الأولى له (المقري)، في حين ذهب الأستاذ الهيتي بعد عرضه لهذه الآراء إلى رأي شخصي مدعم بدليل قائلاً : "ظهرت معالمه في أقدم مؤلف نحوي وصل إلينا عبر أكثر من ألف سنة وهو كتاب" الواضح" للزبيدي (ت 379هـ)، ولكنه نما وازدهر في النصف الثاني من القرن السادس، واكتملت شخصيته وظهرت سماته في القرن السابع"[2].

وهذا فيما يبدو لي معقول ومنطقي، إذا وضعنا في الحسبان مسألة انتشار العربية ونحوها منذ الفتح.

---

[1] المرجع السابق، ص116.

[2] عبد القادر الهيتي، خصائص مذهب الأندلس النحوي خلال القرن السابع الهجري، جامعة بنغازي ليبيا، ط1993/2، ص56.

وللإشارة فإن النحو الكوفي كان سبّاقا إلى هذه البلاد، حيث دخلها عن طريق المغاربة الذين رحلوا إلى العراق ونهلوا من معينه العذب، فشيخ النحو الأندلسي **جوديّ بن عثمان المورورِي (**ت 198 هـ)، الذي "تتلمذ للكسائي والفرّاء وأدخل كتب الكوفيين إلى الأندلس وأوّل من صنّف به النحو ...في حين تأخرت الأندلس في عنايتها بالنحو البصري إلى أواخر القرن الثالث الهجري."[1]

ولم يتوقف ذلك الحراك العلمي في المغرب منذ بدأ التصنيف في النحو، بل ظهرت أفكار تجديدية فجّرت انقلابا على أهم دعائم النحو– وأقصد به العامل– ومثلما أراد الموحدون إبعاد المذهب المالكي من المشهد وتعويضه بالمذهب الظاهري، ألغى **ابن مضّاء القرطبي** الظاهري نظرية العامل في النحو معلنا ثورة على مذاهب النحو السابقة "فحاول تفجير الرأي الذي عبّر عنه ابن حزم تفجيرا ينبع بنحو ظاهري مستقر ...وعلى كل حال فقد فتح باب الاجتهاد في النحو للتقدم به إلى الأمام."

وقد دافع الأستاذ علّال الفاسي عن نظرية ابن مضاء الموحدي الظاهري وكتابه "**الرد على النحاة**" الذي نصح النحّاة –خاصة البصريين– أن يغيروا منهجهم في دراسة النحو".

[1] شوقي ضيف، المدارس النحوية، دار المعارف، مصر، ط/07 د.ت، ص، 289.

وفي هذه النصائح والتوجيهات بدأت ملامح الدعوة بجدية إلى تيسير النحو، والتخلص من بعض التعقيدات التي أراد اللغويون من أهل الظاهرية إنكارها وإزاحتها[1].

ولأن أهل الأندلس قد وجدوا بغيتهم من قبله في كتاب "**سيبويه**" البصري، فدرسوه وحفظوه وشرحوه واختصروه بل واعتنوا بشواهده، وما يحويه من آراء نحوية ومنهج بحث نال إعجابهم فأثار حركة نحوية دائبة أراد ابن مضاء تبديلها، والنتيجة أن المغرب صار أحسن حالا من الحجاز والشام واليمن[2].

وقد يتبادر إلى الأذهان سؤال حول أسباب هذا التطور في الأندلس حتى صار النحو من أهم العلوم المزدهرة فيها، والجواب هو توافر حزمة من العوامل ومن أبرزها:

01- الرحلات العلمية: سواءً الداخلية أو الخارجية إلى القيروان أو نحو المشرق في حواضره وباديه قصد مشافهة الأعراب.

02- الهجرة: حيث هاجر بعض علماء المشرق إلى الأندلس لنشر العلوم فيها.

[1] محمد المختار ولد أباه، تاريخ النحو العربي في المشرق والمغرب، دار الكتب العلمية، لبنان ط/02، 2008، ص 259. نقلا عن علاّل الفاسي (في محاضرة حول الذكرى الألفية لسيبويه).

[2] خديجة الحديثي، المدارس النحوية ، دار الأمل الأردن، ط/03، 2001 ، ص363.

03- المناظرات النحوية: وما تتطلبه من حجة وطلاقة لسان وتعليل وقياس، وهو عامل لا يقل أهمية عن سابقيْه.

04- دور الحكّام والملوك: ويعد العامل الأبرز من بين المذكورة سابقا، وما قاموا به من إنشاء المكتبات التابعة لقصورهم، وتشجيع العلماء على التأليف وإغداق الهدايا عليهم، وتدقيق الكتب وتنقيحها ودعوة العلماء إلى مدنهم وولاياتهم[1].

وبعد ذكر هذه العوامل باختصار شديد، لا يمكن الانتقال إلى ذكر عنصر آخر إلا بعد الإشارة إلى حقيقة مهمة تخص التداخل بين النحو المغاربي والأندلسي وبخاصة أثناء الوحدة بين الضفتين في العصر الموحدي.

3- خصائص المدرسة النحوية المغاربية:

3-1- الاستقلالية لإثبات الوجود:

لقد كان الدرس النحوي في البداية مشرقيا، وظل المغاربة في بداية تأسيسهم لمذهبهم متأثرين بكتب أساتذة النحو كسيبويه وابن جني بالدرس والشرح والتعليق، ولكن بعدما نضج في القرن الخامس الهجري بدأت ملامح شخصيته تظهر من خلال ما انفرد به الأعلام المغاربة أمثال الجزولي وابن معطي وغيرهم...

[1] فادي عصيدة، جهود نحاة الأندلس في تيسير النحو العربي، رسالة ماجستير، جامعة نابلس فلسطين، 2006، ص 26

وقد عدَّ بعض المؤلفين "بأن الكتب النحوية هي من أكثر المصنفات غزارة موزعة بين بحوث وشروح ومن أشهر المصنفين: السهيلي وابن معطي وابن السراج الشنتريني وابن مضاء القرطبي والجزولي".[1]

وهذه الأستاذة "فاتن كوكة" تحصي ما يقارب العشرين كاتبا، كأن بحوثهم فيها دلالة على منافسة لإخوانهم في المشرق، ونوع من التحدي بعد شرح الكتب الأصول في النحو التي أعجبوا بها، "وثمة مصنفات خالف فيها أصحابها بعض نحاة المشرق وهذه المخالفة تتجلى في اتجاهين الأول مخالف لبعض المشارقة كالسهيلي والآخر مخالف لما اعتاده جمهور النحاة في المغرب والمشرق كابن مضاء القرطبي..."[2]

وخير مثال أورده صاحب "**النبوغ المغربي**" الأستاذ كنون فيه دلالة على تفرد مدرسة المغرب: "فهي لا تسمّي" لو لا" شرطا ولا " لو" ، إلا إذا كانت بمعنى "إن". أي: حين تكون مجردة من الامتناع، وذلك في الغايات نحو قوله عليه السلام: "احفظوا عني ولو آية. "أشار له العلامة ابن غازي"[3].

فهذا إن دل على شيء، فإنما يدل على الدراسات المميزة التي كان يسهم المغاربة في إثرائها، قصد تنشيط عجلة علوم اللغة بما فيها النحو.

---

[1] فاتن كوكة، التصنيف اللغوي والأدبي في عصري المرابطين والموحدين، وزارة الثقافة، سوريا، ط2012/1، ص457.

[2] المرجع نفسه، ص 491

[3] عبد الله كنون، النبوغ المغربي في الأدب العربي، دارالثقافة المغرب، دت، ج1 ، ص12.

3-2- تيسير النحو واختصاره:

قد يعتقد بعض الناس أن فكرة تيسير النحو مغاربية موحدية صاحبها ابن مضاء، ولكن الذي يتأمل في بداية الدرس النحوي يلحظ تلك الأفكار عند أساتذة المدرسة الكوفية، أما منهج المغاربة في التيسير في هذا العصر فهو تأليف المتون النثرية **(مقدمة الجزولي)** والمتون الشعرية –المنظومات – **(الدرة الألفية لابن معط الزواوي)** وتصنيف الكتب المختصرة **(الفصول الخمسون لابن معط)**[1].

وقد تأثر ابن معط الزواوي في ألفيته بمن قبله في بعض المسائل، في حين تميز بمسائل انفرد بها وقبل ذلك كله مزجه بين بحري السريع والرجز أثناء نظمه لدرته التي كان اسمها كذلك فريدا أي: **الألفية** وتبعه ابن مالك الأندلسي وغيره في تلك التسمية ،وشرحها خلق كثير من بعده.[2]

3-3- الطابع التعليمي:

من يتصفح مقدمة الجزولي والفصول الخمسون لابن معطي، سوف تتضح له هذه الميزة الأخرى التي اختص بها النحو المغاربي، ومثل هذه الكتب تهتم

[1] جميلة راجاح، إسهامات علماء المغرب الوسيط في تنمية الدرس النحوي، ص290.

[2] علي الشوملي، شرح ألفية بن معط، مكتبة الخريجي، السعودية. ط/3-1985، ج01، ص42 وما بعدها.

بالمسائل العامة دون الجزئيات المعقدة، مثل "الجزولية التي اتسمت بهذا الطابع فقد كانت كتابا تعليميا متميزا وجد فيه العلماء والطلبة غايتهم على السواء..."[1]

3-4- تنوع الاستشهاد:

يأتي كلام الله عز وجل دوما في المرتبة الأولى في الاستشهاد لدى النحاة المغاربة، إضافة إلى عنايتهم بالقراءات ثم كلام العرب شعرا ونثرا كما اهتم أهل الأندلس بحديث رسول الله عليه السلام في حين لم يحتج أهل المغرب به كثيرا[2].

الخاتمة:

لقد قيل ولا يزال بأن الإنسان ابن بيئته، والحياة الثقافية التي نضج فيها النحو المغاربي كانت حاضنة لمثل هؤلاء الأعلام الذين شدوا عصى الترحال فاستفادوا وأفادوا.

وشاء الله أن تكون بلاد المغرب معتنقة لدينه ومحافظة على لغته، وكل ما يخدمها من علوم وبخاصة النحو الذي وجد أرضا خصبة، فأينع وترعرع فيها ونضج في الوقت المناسب.

ومن خلال الصفحات تبينت بعض النتائج وهي:

√ تأثر النحو المغربي بمن سبقه في بداياته، وتأثيره فيمن أتى بعده.

[1] راجاح، إسهامات علماء المغرب الوسيط في تنمية الدرس النحوي، ص251.

√ تنوع مصنفات النحو المغاربي.

√ تأثير الحياة السياسية على الحركة العلمية.

√ بروز آراء جديدة في النحو العربي.

كما أوصي الباحثين وطلبة العلم بنفض الغبار عن تراثنا المغاربي بالدرس والتنقيب والحفظ والتحقيق لأن أهل المغرب أدرى بجبالها ووديانها وآكامها.

قائمة المراجع:

أولا الكتب:

1- خديجة الحديثي، المدارس النحوية، دار الأمل الأردن، ط/03، 2001.

2- شوقي ضيف، المدارس النحوية، دار المعارف، مصر، ط/07، د.ت.

3- عبد الله كنون، النبوغ المغربي في الأدب العربي، دار الثقافة، المغرب (د.ت)

4- عبد القادر الهيتي، خصائص مذهب الأندلس النحوي خلال القرن السابع الهجري، جامعة بنغازي- ليبيا، ط2/ 1993.

5- علي الشوملي، شرح ألفية بن معط، مكتبة الخريجي، السعودية، ط/3- 1985.

6- فاتن كوكة، التصنيف اللغوي والأدبي في عصري المرابطين والموحدين، وزارة الثقافة، .سوريا، ط2012/1 .

7- محمد الطنطاوي، نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة، دار المعارف، القاهرة، ط1995/02.

8- محمد المختار ولد أباه، تاريخ النحو العربي في المشرق والمغرب، دار الكتب العلمية، لبنان ط/02، 2008.

ثانيا : الرسائل والأطروحات:

1- جميلة راجاح، إسهامات علماء المغرب الوسيط في تنمية الدرس النحوي (أطروحة دكتوراه)، قسم اللغة العربية، جامعة تيزي وزو، 2015 .

ثالثا: الدوريات والمجلات:

1- صليحة مخلوفي، ابن معط ومنهجه التعليمي من خلال الألفية، مجلة المجمع الجزائري للغة العربية، ع:13 جوان 2011.

2- يحياوي حفيظة، إسهامات نحاة المغرب والأندلس في تأصيل الدرس النحوي العربي خلال القرنين 06و07هـ، مخبر الممارسات اللغوية جامعة تيزي وزو، 2011 .